

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ
يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾

[الإنسان: ١]

من الدلالات العلمية للأيات الكريمة

أثبتت دراسات علوم الأرض والفضاء أننا نحيا في كون يقدر عمره بأكثر من عشرة آلاف مليون سنة، وعلى أرض يقدر عمرها بأكثر من أربعة آلاف وستمائة مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة على الأرض يعود إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة مضت، وقد وجد هذا الأثر على هيئة جزيئات لمركبات عضوية متأخرة تشبه العديد من الخلايا الحية المعاصرة، وقد اكتشفت هذه البقايا في صخور جزيرة جرينلاند في سنة ١٩٧٨ م بواسطة «سيريل بونامبروما – Cyril Ponnampерuma» الأستاذ بجامعة ميريلاند الأمريكية.

وقد أدى هذا الكشف إلى اعتبار الفترة من ٤.٦ بلايين سنة مضت إلى ٣.٨ بلايين سنة مضت وقدرها ٨٠٠ مليون سنة فترة إعداد الأرض لاستقبال الحياة، ويطلق عليها اسم زمان أو «أبد انعدام الحياة – The Azoic Eon».

وتلا ذلك اكتشاف أحافير لكتائبات وحيدة الخلية تشبه البكتيريا في صخور يرجع عمرها إلى نحو ثلاثة بلايين ونصف البليون سنة في جنوب غربي أستراليا. وبالمثل تم اكتشاف عدد من الأحافير لكتائبات وحيدة الخلية شبيهة بالطحالب والبكتيريا المعاصرة، وذلك في تتبع من الصخور الرسوبيّة غير المتحولة يعرف باسم «متكون شجرة التين – The Fig Tree Formation» وذلك في جنوب أفريقيا، ثم تم اكتشاف

بقايا لـ «الطحالب الخضراء المزرقة - Blue green-Algae» في صخور جيرية يرجع عمرها إلى 2.7 بليون سنة، وتم اكتشاف بقايا مشابهة في منطقة «أنتاريو-كندا» في صخور يرجع عمرها إلى 1.9 بليون سنة. وبالمثل تم اكتشاف العديد من أحافير الطحالب والبكتيريا والفطريات في صخور من الصوان الكربوني في وسط أستراليا قدر عمرها بألف مليون سنة مضت.

وهذه الكائنات تصنف تحت أمة واحدة تعرف باسم «أمة أوليات الأنوية - Domain Prokaryota Kingdom Monera»، وتحت مملكة واحدة هي «مملكة البدائيات - Monera»، وتشمل البكتيريا والطحالب الخضراء المزرقة، وأفرادها بسيطة التركيب، ويكون الفرد منها من خلية واحدة، أو من عدد من الخلايا، ولكن هذه الخلايا لا تتميز إلى أنسجة، ولا إلى أعضاء، مهما تعددت الخلايا، ولكنها قد تتفرع إلى عدة أفرع. وهذه الكائنات ليست لها نواة محددة، ولكن تنتشر محتويات النواة في سائل الخلية دون أن تتركز على هيئة الصبغيات.

ووُجِدَت بقايا أول «خلية ذات نواة محددة - Domain Eukaryotes» في صخور يرجع عمرها إلى نحو 1.4 بليون سنة في شرق ولاية كاليفورنيا الأمريكية، والكائنات الوحيدة الخلية، وذات النوى المحددة المحاطة بغشاء نووي يفصلها عن سائل الخلية (السيتوبلازم) تصنف في عدد من المالك الخاصة، منها «مملكة الطلائعيات - Protista Kingdom Ciliata»، وتضم العديد من الكائنات البسيطة مثل السوطيات، والطحالب، والجراثيميات أو «البوغيات - Sporozoa»، و«المليبيات - Ciliata» وغيرها. ومنها «مملكة الفطريات - kingdom Fungi».

أما «مملكة الحيوانات - Kingdom Animalia» - والتي تضم أكثر من عشرين قبيلة - فقد وجدت أولى بقاياها في صخور يقدر عمرها المطلق بنحو 700 مليون سنة مضت. وبناء على ذلك تعتبر الفترة من 3.8 بلايين سنة مضت إلى 700 مليون سنة مضت زماناً خاصاً يعرف باسم زمان أو «أبد الحياة المستترة - The Cryprozoic Eon»، وقد دام لأكثر من ثلاثة بلايين سنة (3.1 بلايين سنة)، واعتبرت الفترة من 700 مليون سنة إلى اليوم زماناً آخر يعرف باسم زمان أو «أبد الحياة الظاهرة - The Phanerozoic Eon».

ازداد فيه تنوع وأعداد مختلف صور الحياة النباتية والحيوانية بالتدريج حتى وصلت إلى صورتها الحالية، فتعددت صور النباتات من الطحالب، إلى الحزازيات، إلى ذيل الحصانيات، إلى السراغن، ثم التخليليات، والمخروطيات (الصنوبريات)، إلى النباتات المزهرة. وقد خلقت أول النباتات الأرضية منذ نحو ٤٠٠ مليون سنة في مطلع العصر السيلورى، وبقيت الحياة في المياه لأغلب تاريخ الأرض.

وتنوعت مجموعات الحياة الحيوانية غير الفقارية لتشمل أكثر من عشرين قبيلة متمايزة، وخلقت طلائع الأسماك، ثم البرمائيات، ثم الزواحف، ثم الطيور، ثم الحيوانات اللبنية (ذات الأثداء أو الثدييات) وتنوع خلقها تنوعاً مذهلاً حتى خلقت «الثدييات المشيمية — Placental Mammals» وكان منها آكلات الحشرات، والخفاثيات، والحافيات (ذوات الحوافر) ومنها الخيول، والغزلان، والماشية، وغيرها، و«المفترسات — Carnivora»، و«القوارض — Rodentia»، والخرطوميات من مثل الفيل، والحيتان والدلافين، والرئيسيات ومنها القردة (القرود العادبة، والشمبانزى والغوريلا، وغيرها)، بينما لا يتعدي أقدم أثر للإنسان على الأرض مائة ألف سنة.

من هذا الاستعراض تتضح ومضة الإعجاز العلمي في قول ربنا (تبارك وتعالى): «هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ إِنْسَنٍ حِينَ مَنَ الْدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذُوْرًا» [الإنسان: ١] فقد أثبتت العلوم المكتسبة أن عمر الإنسان على الأرض لا يتعدي واحداً من خمسين ألفاً من عمرها، وأن خلق الأحياء الأخرى قد سبق خلق الإنسان بقراة الأربع ملايين من السنين، وإذا قارنا هذه الحقيقة القرآنية التي أنزلت من قبل ألف وأربعين ألف سنة بما ذكره القس الإنجيلي الأيرلندي «جيمس أشر — James Ussher» «كبير أساقفة أرماغ — Archbishop of Armagh» ، والذي عاش في الفترة (من ١٥٨١ إلى ١٦٥٦م) والذي أعلن في سنة ١٦٢٥م أن الأرض قد خلقت في تمام الساعة العاشرة من صباح الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد بناء على تحليله لتتابع الأحداث في العهدين القديم والجديد، أدركنا فضل القرآن الكريم على غيره، خاصة أن هذا التاريخ قد ظل مثبتاً حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أي لقراة الثلاثمائة سنة، وهي صورة من الخطأ البشري الذي صححه العلم مؤخراً.